

مصير الحضارة

للأستاذ عباس محمود العقاد

يجتمع اليوم في مصانع العالم ومخازنه من أسلحة الحرب وأدوات الملاك ووسائل التدمير ما لم يجتمع مثله قط في تاريخ الإنسان .

فهل يعقل العقل أن تلبث هذه الآلات مشلولة معطلة ينتهي أمرها بانتهاء صنعها ويقف الخطر منها عند حد التخويف والانذار ؟

وإذا هي استخدمت فيما صنعت له وانطلقت من عقالها وفلت كل ما يخشى من قملها الموبق الوحيم ، فإذا بقي من الحضارة ؟ وماذا يبقى من تاريخ الآدمية بعد أن عبر هذا الشوط الطويل في آفاق الزمان ؟ ألا تكون النهاية ؟ ألا نرجع كرة أخرى إلى حالة بين الممجية والحيوانية ينقطع السلم بعدها فلا نهتدي منه إلى طريق صاعد ، ولا نعود — إذا ملكنا رأينا — إلى تجربة قدر رأينا في خواتمها ما يصد النفوس عن البدء فيها ؟

أكبر ما يرجوه الآملون في مستقبل الإنسان أن تنقبض هذه الشرور الجهنمية في محابسها كما تنقبض الشياطين في القمام ، فتخيف الناس خوفاً يعصمهم من آفاتهم ويذودهم عن اللعب بغيراتها فإن لم يصدق هذا الرجاء فأكبر الرجاء يعمده أن تصمد البنية الآدمية للخطر المحيط بها وأن تفلت منه ببقية صالحة تحفظ عناصر الحضارة والأخلاق كما تصان الدخيرة المتبقية من أنقاض الحريق وأصحاب الرجاء في هذه العاقبة السليمة يملقون رجاءهم على اختلاف الحال بين المصور التي سبقت زوال الحضارة فيما سلف وبين المصور التي نحن فيها والعواقب التي نحن منساقون إليها

ففي الأزمة الفائرة كانت غارات الهمج على الأمم المترفة هي المول الأكبر الذي يضرب في أركان الحضارة ويقتلع العمران من أساسه ، وكانت غارات الهمج مصحوبة بحال من العقم في القرائح والأفكار تصيب الفنون والعلوم بالفاقة والكساد والنضوب ، فكانت تنفضي السنون وراء السنين ولا جديد في

عالم التأليف ولا في عالم الاختراع ولا في عالم الفنون والآداب ، وتلك في الواقع هي علامة الدثور والاضمحلال التي لا تريد الفترات الممجية إلا التسجيل والاعلان . ولا شك في أن الحضارات الأولى قد أخذت تموت وتهاوى قبل أن يجهز عليها المفكرون من أبناء القبائل المارمة ، ولا أدل على موتها من ضمور ملكة الخلق والابتكار فيها .

أما اليوم فالأمر بيننا مختلف والاختراع بيننا أروع وأكثر مما كان في أيام ازدهار الحضارات البائدة ، وما تطلع الشمس صباحاً واحداً في أنحاء العالم التمدن على غير كتاب جديد أو ثمرة فنية جديدة أو اختراع طريف أو تنويع وتحسين في اختراع قديم . فالبنية الآدمية بما اشتملت عليه من قدرة على التفكير أو قدرة على الشعور أو قدرة على الابتكار بنية سليمة مهيأة لطول الحياة ومغالبة الأحداث وتمويض المفقود .

هذا مع اختلاف آخر لا يقل في أثره ولا دلالة عن ذلك الاختلاف ، وهو أن الغالبين والمفلولين في أيامنا سوف يكونون من أبناء الحضارة الحديثة المشاركين في علومها وصناعاتها وأدواتها وآلاتها ، فمن كتب له النصر من المحاربين في المعركة القادمة سوف يضطلع بأمانة الحضارة وحده إذا قدرنا أن المهزومين يمجزون كل العجز عن متابعة الطريق واستئناف العمل النافع ؛ وسوف يستبقى من علومنا وأفكارنا ما يصلح أن يكون خبيرة يأكل من زادها أبناء الأجيال المقبلة ، ثم يفتنون فيها ويزيدون عليها .

هذا وذاك مع اختلاف ثالث لا يقل عن ذينك الاختلافين في تغليب دواعي الأمل على دواعي القنوط ، وذلك أن معارف الحضارة الحديثة لا تشبه معارف الحضارات الأولى في جواز الفناء عليها . فقد كانت معارف المصريين واليونان والرومان الأقدمين أشبه شيء في مجلتها بحرفة الصانع القديم الذي يصون سره ويحملة معه إلى قبره ، أو كانت بمثابة الخبرة الشخصية التي لا تقبل التعميم ولا اتصال النسق بين حاضرها وماضيها ، لأنها مسائل اجتهداً يكاد يبدأها كل عامل من البداية ولا يدعمها إلى أساس يبنى عليها من يخلفه من أبناء الصناعة .

أما حضارة العصر الحديث فهي حضارة قائمة على أساس العلم

إلا أن الأفق لا يخلو في هذه الظلمة أيضاً من بارقة بعيدة يوشك أن يستفيض منها ضياء شامل .

فكما شاعت اللذات كذلك شاعت السامة من اللذات ، وشاعت النزعة إلى التبديل ، وتسرب القلق إلى الضمائر ، فليست هي في حالة استقرار ، ولكنها في حالة تحفز وانتظار .

ويحيل إلينا أن الدنيا تتجه إلى تفكير جديد في القرن العشرين يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من طور العقائد التقليدية إلى طور العقائد بالبحث والاجتهاد ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من هذا إلى الإيمان بالعقل وحده ، ثم الفلور في التعويل عليه كما غلا العقليون المرفوفون « بالراشفتلاست » في أوائل القرن الثاير ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من « الراشفتلازم » إلى المذهب الروحي أو مذهب البصيرة واللاهاف الذي شاع منذ خمسين سنة في الأمم الغربية كافة

أما هذا التفكير الجديد الذي تنتقل إليه الآن فهو التقاء العالم المشهود وعالم الأسرار عند « الفلسفة الرياضية » التي انتهى إليها البحث في النور والاشعاع

فقد كان العالم الطبيعي في ناحية والعلم الرياضي في ناحية أخرى

كان العلم الطبيعي في تجارب المحسوسات ، وكان العلم الرياضي في الحقائق الذهنية التي لا تحتاج إلى العالم المحسوس فاليوم وصل العلم الطبيعي بكل شيء إلى الاضاء والاشعاع ، ووصل بالاشعاع إلى النسب العددية والتقديرية الرياضية ، وجاز في عرف العقل المثقف السليم أن تقاس الحقيقة من « باطن » العقل وداخل السريرة ، على مثال يقارب هداية الملهمين ومكاشفة القديسين في الزمن القديم .

تلك البارقة من التقاء عالم المادة وعالم الأسرار بشيرة بالخير وشبكة أن تعصم النفوس من تيه الظلمات ، وأن تسلم زمام الحضارة الانسانية إلى غاية أبعد من الغاية التي يدين بها عباد الخبز وعباد الخنجر ، حينما اهتدى بها العلم والفلسفة والعقيدة في أعقاب الضياء .

لشائع المقرر الذي جعل لكل اختراع قاعدة ولكل صناعة أصلاً ولكل مرحلة من مراحل التعليم مسافة وحداً ؛ فلو فئيت ثلاثة أرباع المصنوعات الحديثة من الدنيا لكان الربع الباقي مشتملاً على جميع قواعدها وأصولها ومراحل التعليم والابتكار فيها ؛ ومن لبعيد عن التصور أن تعتمد الحرب إلى عناصر العلم المتفرقة تنجمها كلها إلى بقعة واحدة وترسل عليها صيماً من القذائف لتأسفة فتمحوها محواً ولا تذر منها بقية للتجديد والترميم .

ذلك بعيد عن التصور ، ولاخوف من اتجاه التبة إليه أو اشتغال لطاقة على تنفيذه لو جاز أن يداخل النبات على أبعاد الفروض .

نعم إن هناك خطراً أخطر على الحضارة من تدمير عناصر العلم بالقذائف الناسفة والآلات الجهنمية التي هي نفسها مادة من مواد العلم وجزء من أجزاء الصناعة .

هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية وهو إفساد الطبائع ومسح العقول وتلويف الأخلاق . تمويد الناس أن يسخروا بكل نبيل جليل وأن يقنعوا من الدنيا نعيشة البهم ولذائذ الحيوان .

فلو شاعت هذه الآفة — بل هذا الوباء — بعد الحرب لقبله لكان بقاء العلوم والصناعات وزوالها على حد سواء ، لكانت الحضارة شيئاً لا يستحق الحرص عليه ولا الأسى لفقده إلا التفكير في استبقائه ، ولبلفت الحرب بالناس أقصى ما تخاف ن وبألها المحذور .

ومن خاف هذه العاقبة فله عذره الواضح مما تراه من تهالك إلى المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الخميسة وتهافت على التل لعليا والأخلاق الفاضلة والمطالب التي تتجاوز ساعتها أو يومها و عمر طالها على أبعد احتمال .

الاشتراكيون لا يؤمنون بنير الخبز ، والفاشيون لا يؤمنون غير الخنجر ، والذين يأنفون من مذهب أولئك ومن مذهب هؤلاء حيارى لا يهتدون إلى قرار ؛ ومتى أمبحت الغاية المشودة كما كان فيه آكلونا وأجدادنا منذ ألوف السنين فنحن راجعون إلى براء ، مقبلون على هبوط يشبه الفناء .